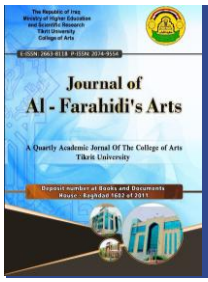

Tikrit University | جامعة تكريت
مجلة آداب الفراهيدي
Journal of Al-Farahidi's Arts

Religious Aspects of The Mamluk Sultan Al-Zahir Baybars Al-Bunduqdari (658-676 AH / 1260-1277 AD)

الجوانب الدينية للسلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨-٦٧٦ هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧ م)

Lecturer. Dr. Mukhlaf Abdullah Salih
Department of History, College of Education for Girls, University of Kirkuk
Kirkuk, Iraq

م. د. مخلف عبد الله صالح
قسم التاريخ، كلية التربية للبنات، جامعة كركوك
كركوك، العراق

SUBMISSION التقديم	ACCEPTED القبول	E-PUBLISHED النشر الإلكتروني
10/08/2024	17/10/2024	30/12/2024

P-ISSN: 2074-9554 | E-ISSN: 2663-8118 https://doi.org/10.25130/jaa.9th.1.13 Conference (9th) No (1) September (2024) P (158-174)

ABSTRACT

Studying the religious aspects of the Mamluk Sultan Al-Zahir Baybars is a topic worthy of study and research, to shed light on the private life of Sultan Al-Zahir Baybars, as he was a slave from the land of the Kipchaks and was sold in the slave markets and bought by one of the princes, then became one of the Mamluks of the Ayyubid Sultan Najm al-Din Ayyub, then he rose through the ranks until he became the most powerful prince, then he was able to kill Sultan Qatar to become the Sultan of the Mamluk State, but rather the most powerful Sultan of the Bahri Mamluk State and its true founder, as he was able during his reign to achieve great victories over the Crusaders and Mongols and liberate a large number of castles. He had many works in the field of charity and goodness, from building mosques and places of worship, ruling with justice and fairness to the subjects by sitting to consider grievances and reclaiming the rights of the public from the masters, and crowned his religious works by reviving the Abbasid Caliphate in Cairo after its fall in Baghdad at the hands of the Mongols and the killing of the last Abbasid Caliph, then God guided him to perform the Hajj, and none of the Bahri Mamluk Sultans performed Hajj except Sultan Al-Zahir Baybars and Sultan Muhammad bin Qalawun.

KEYWORDS

Egypt, Al-Zahir Baybars, Abbasid Caliph, Grievances, Castles, Mosques, Religious Aspects

الملخص

تعد دراسة الجوانب الدينية للسلطان المملوكي الظاهر بيبرس من المواضيع الجدير بالدراسة والبحث، لتسليط الضوء على الحياة الخاصة للسلطان الظاهر بيبرس حيث كان مملوكاً جي به من بلاد القبجاق وبيع بأسواق النخاسة واشتراه احد الامراء ثم اصبح احد مماليك السلطان الايوبي نجم الدين ايوب، ثم تدرج بالمناصب حتى اصبح اقوى الامراء ثم تمكن من قتل السلطان قطر ليصبح سلطاناً على دولة المماليك بل اقوى سلاطين دولة المماليك البحرية والمؤسس الحقيقي لها، حيث تمكن خلال مده حكمه ان يحقق انتصارات كبيرة على الصليبيين والمغول ويحرر عدد كبير من القلاع وله اعمال كثير في مجال البر والخير من بناء المساجد ودور العبادة والحكم بالعدل وانصاف الرعية بالجلوس للنظر في المظالم واسترجاع حق العامة من ارباب، وكلل اعماله الدينة بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة بعد سقوطها في بغداد على يد المغول وقتل اخر خليفة عباسي، ثم وفقه الله لأداء فريضة الحج ولم يحج من سلاطين المماليك البحرية الا السلطان الظاهر بيبرس والسلطان محمد بن قلاوون.

الكلمات المفتاحية

مصر، الظاهر بيبرس، الخليفة العباسي، المظالم، القلاع، المساجد، الجوانب الدينية

Copyright and License: This is an Open-Access Article distributed under A Creative Commons Attribution 4.0 License, which allows free use, distribution, and reproduction in any medium provided the original work is properly cited.

المقدمة:

ان دراسة الجوانب الدينية للسلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠م –١٢٧٧م) الدراسات والتي تستحق الدراسة والبحث ذلك لكثرة التحديات التي واجهت دولة المماليك البحرية في عهده، ولا سيما في بداية تأسيسها الذي ويعد هو المؤسس الفعلي لها وهو من ارسى قواعدها، حيث كانت الدولة الفتية محاطة بأخطار كثير منها الخطر الايوبي اصحاب الحق الشرعي في السلطنة، ومعارضة العامة لحكم المماليك باعتبارهم من العبيد ولا يحق لهم الحكم، فضلاً عن الخطر الخارجي المتمثل بالمغول والصليبيين، فقد تمكن الظاهر بيبرس الذي كان مملوك بيع في اسواق النخاسة وتدرج في المناصب حتى اصبح من اقوى السلاطين من تأسيس دولة قوية تمكن من الانتصار على المغول والصليبين في مواقع عديدة وتحرير عدد كبير من المدن والقلاع، وقام ببناء وترميم عدد كبير من دور العبادة والمرافق العامة، والحكم بالعدل وانصاف الرعية بالجلوس للنظر في المظالم واسترجاع حق العامة من ارباب، وكلل اعماله الدينة بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة بعد سقوطها في بغداد على يد المغول وقتل اخر خليفة عباسي، ثم وفقه الله لأداء فريضة الحج.

تهدف الدراسة على التعرف على السلطان الظاهر بيبرس واهم انجازاته الدينية حيث كان مملوكاً جي به من بلاد القبجاق وبيع بأسواق النخاسة واشتراه احد الامراء ثم اصبح احد مماليك السلطان الايوبي نجم الدين ايوب، ثم تدرج بالمناصب واصبح احد ابرز القادة العسكرين وشارك في معركة عين جالوت الذي انتصر فيها المماليك على المغول وبعد انتهاء المعركة واثناء العودة الى القاهرة تمكن هو ومجموعة من مماليكه من قتل السلطان قطر ليصبح سلطاناً على دولة المماليك بل اقوى سلاطين دولة المماليك البحرية والمؤسس الحقيقي لها، حيث تمكن خلال مده حكمه ان يحقق انتصارات كبيرة على الصليبيين والمغول ويحرر عدد كبير من القلاع وله اعمال كثير في مجال البر والخير من بناء المساجد ودور العبادة والحكم بالعدل وانصاف الرعية بالجلوس للنظر في المظالم واسترجاع حق العامة من ارباب، وكلل اعماله الدينة بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة بعد سقوطها في بغداد على يد المغول وقتل اخر خليفة عباسي، ثم وفقه الله لأداء فريضة الحج ولم يحج من سلاطين المماليك البحرية الا السلطان الظاهر بيبرس والسلطان محمد بن قلاوون.

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي الذي يقوم على دراسة المصادر التاريخية والدراسات الحديثة وجمع المعلومات ونقدها وتحليلها وعرضها بدقة بأسلوب علمي، ومحاولة استنطاق النصوص، ووصف الوقائع التاريخية بالاعتماد على ما توصلت إليه من معلومات موثوقة والتعريف بالأماكن والشخصيات والمصطلحات والمفاهيم الواردة في الدراسة.

واقتضت طبيعة البحث تقسيمه الى ثلاث مباحث يسبقها ملخص وتتلوها خاتمة ذكر فيها أبرز النتائج التي توصل اليها البحث. جاء المبحث الاول عن حياة السلطان الظاهر بيرس وكيفية بيعه في سوق النخاسة ووصوله الى بلاد الشام ثم الى مصر، ووصوله الى السلطة وازواجه واولاده ثم وفاته، وتطرق المبحث الثاني عن احياء السلطان للخلافة العباسية في مصر، ونماذج من فتوحاته وجهاده ضد الصليبيين، ونماذج من جلوسه للنظر في المظالم، اما المبحث الثالث فقد تناول اهتمام السلطان الظاهر بيبرس بدور العبادة والاوقاف، واحتفالاته بالمناسبات والاعياد واخيرا حج السلطان الظاهر بيبرس.

المبحث الأول: حياة السلطان الظاهر بيبرس:

أولاً: اسمه ونسبه:

هو ركن الدين محمود بن عبدالله بيبرس البند قداري، الصالحي، النجمي الأيوبي التركي الأصل، وكنيته أبو الفتوح، وبيبرس "معناه باللغة التركيّة: أمير فهد" (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٩٩٢، صفحة ٩٤/٧) ولد في بلاد القبجاق سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م (الصفدي، ٢٠٠٠، صفحة ٢٠٧/١٠)، ونتيجة للغزوات التي قام بها المغول وغيرهم لتلك البلاد وقع بيبرس في الاسر مع العديد من ابناء قومه فبيع في سيواس

سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م وكان عمره اربع عشرة سنة تقريباً (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٩٩٢، صفحة ٩٧/٧).

ثانياً: بيعه في اسواق النخاسة:

ونقل بعدها عن طريق النخاسين الى حماة من اجل بيعه فعرض على الملك المنصور (٦٤٢-٦٨٣هـ/١٢٤٤-١٢٨٣م) صاحب حماة، وكان صغيراً في عهد الصبا، وكان من طبع الملك المنصور أنه إذا أراد شراء احد المماليك يعرضهم على والدته صفية خاتون الملقبة بالصاحبة، فأحضر إليها اثنين من المماليك، كان احدهما بيبرس وشاهدتهما من خلف حجاب، فقالت "هذا الأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة فإنّ في عينيه شراً لائحا فردّتهما جميعا" (ابن تغري بردي، ١٩٩٢، صفحة ٩٥/٧)، ثم نقل الى دمشق وبيع هناك بثمانمائة درهم فرده مشتريه بعد ان اكتشف بياض في إحدى عينيه، فرجع به التاجر مرة اخرى الى حماة وباعه لتاجر اسمه العماد الصائغ، ثم اشتراه الأمير علاء الدين أيدكين الصالحي البندقداري، ولهذا أطلق عليه بيبرس البند قداري (ابن تغري بردي، موارد اللطافة في من ولي السلطة والخلافة، ١٩٩٧، صفحة ٣٣/٢).

وكان الامير علاء الدين من مماليك السلطان الايوبي الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٨هـ-٦٤٧هـ/١٢٤٠م-١٢٤٩م)، وكان مسجوناً بجامع قلعة حماة بأمر من السلطان الصالح نجم الدين ايوب، وأقام بيبرس في خدمة علاء الدين حوالي اربع سنوات (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٩٩٢، صفحة ٩٥/٧)، ثم انتقل الى خدمة السلطان نجم الدين ايوب بعد ان صادر السلطان اموال الامير علاء الدين في شوال سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ٩٨/٢)، وبذلك اصبح بيبرس من ضمن الاموال التي صادرها فاصبح بيبرس من مماليك السلطان نجم الدين ايوب ومن المماليك الصالحية البحرية (ابن تغري بردي، موارد اللطافة في من ولي السلطة والخلافة، ١٩٩٧، صفحة ٣٣/٢) الذي قال عنه ابن تغري بردي "اشتراه الأمير علاء الدين البند قداري الصالحي فطلع بطلاً شجاعاً نجيباً لا ينبغي أن يكون إلا عند ملك، فأخذه الملك الصالح منه" (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٩٩٢، صفحة ٩٥/٧).

وعندما اشتراه السلطان الطالح ايوب، أعتقه وأصبح من مماليكه المقربين، بعدما أحس بذكائه وخبراته في كثير من الأمور فقد كانت شخصيته مميزة وذكائه حاد، وكان حاضراً مع السلطان الصالح أيوب في معركة دمياط سنة(٦٤٧هـ/١٢٤٩م) ضد الإفرنج، والتي أبلى بها بلاءً حسنًا هو ومن معهُ من المماليك البحرية (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٩٩٢، صفحة ٩٥/٧).

ثالثاً: صفاته:

يعد السلطان الظاهر بيبرس مؤسس دولة المماليك البحرية واقوى سلاطينها فقد وصفه المؤرخين المعاصرين بصفات جليله فقال عنه المقريزي "كان ملكاً جليلاً شجاعاً عاقلاً مهيباً، ملك الديار المصرية والشام... وفتح الفتوحات الجليلة، وكان أسمر أزرق العينين، جهوري الصوت" (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ١٠/٤)، كما وصفه ابن تغري بردي "مقداماً غازياً مجاهداً مرابطاً خليقاً بالملك خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر الحروب بنفسه" (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٩٩٢، صفحة ١١٧/٧)، وكان عوناً للمسلمين ونصر الإسلام وأهله، وكان واقفاً بوجه الأعداء من الإفرنج، والتتار، المغول (ابو الفداء، ١٩٩٧، صفحة ١٠/٤).

وقد اتّصف بيبرس بالأخلاق الحميدة والمزايا الرشيدة، والشجاعة الفريدة، والتي اتفق عليها عامة الناس أنه فارس شجاع في زمانه، وكان أسداً في المعارك، لا يخاف ولا يهاب الموت، وكانت روحه تواقة لسماع أخبار الجهاد ومقارعة الأعداء والذود عن حمى المسلمين وديارهم (ابن عبد الظاهر، ١٩٤٢، الصفحات ٧٤-٧٥).

رابعاً: زوجاته وأولاده:

وتزوج السلطان الظاهر بيبرس خمس نساء وهن جارية كردية من الاكراد الشهرزورية تزوجها عندما حالفهم (الصفدي، ٢٠٠٠، صفحة ٢٠٨/١٠) في اثناء قدومه الى غزة ثم طلقها عندما أصبح سلطاناً (النويري، ٢٠٠٤، صفحة ٢٣٥/٣٠)، ثم وتزوج ابنه حسام الدين بركة خان التتري، وقد أنجب منها ابنه السعيد بركة خان، كما تزوج بنت الأمير سيف الدين نوكاي التتري، ثم ابنة الأمير سيف الدين كراي التتري وابنة الأمير سيف الدين التتري. وله عشرة من الاولاد ثلاثة ذكور وهم السعيد بركة الذي ولد في صفر سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م وبدر الدين سلامش، ونجم الدين خضر والإناث سبع (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ١٠٧/٢).

خامساً: وفاته:

وفي عصر يوم الخميس ٢٨ محرم سنة ٦٧٦هـ/٣٠حزيران ١٢٧٧م توفي السلطان الظاهر بيبرس البندقداري (ابن العسال، ٢٠١٧، صفحة ٢٣١/١) في دمشق عند وصوله من بلاد الروم، إذ مرض وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوماً (ابن عبد الظاهر، ١٩٤٢، صفحة ٤٧٤) وقد تجاوز الخمسين من عمره، ودامت سلطنته سبعة عشر سنة وشهرين واثنتي عشر يوماً (ابو الفداء، ١٩٩٧، صفحة ١٠/٤) وافته المنية إثر حمى محرقة، وعندها اخفى الأمير عزالدين، نائب سلطنة الشام، وبدر الدين بيليك الخزندار خبر وفاته وكتب الى ابنه السعيد بركة خان يعلمه بوفاة والده ثم نقلت الجثة ليلاً الى القلعة ثم نقله خاصته من الامراء ثم غسلوه وحنطوه وتركوا " ثم جعلوه في تابوت وعلقوه في بيت من بيوت القلعة بدمشق حتى يحصل الاتفاق على مكان دفنه" (ابن العسال، ٢٠١٧، صفحة ٢٣١/١)، واشيع ان السلطان مريض وسار الخزندار بالجيش بمحفة فارغة وحوله الامراء والجنود يوهم الناس ان السلطان فيها وهو مريض حتى وصل إلى مصر (ابو الفداء، ١٩٩٧، صفحة ١٠/٤).

وفي ٢٦ صفر٦٧٦هـ/٢٨تموز١٢٧٧م وصل الخزندار ومن معه الى القاهرة وتسلم السعيد مقاليد الامور واعلن عن وفاة السلطان الظاهر بيبرس، وفي يوم ٢٧ صفر دعا الخطباء للسعيد بركة ابن الظاهر بيبرس على المنابر وصلوا على السلطان الظاهر بيبرس صلاة الغائب، وكان الظاهر بيبرس اوصي ان يدفن على الطريق قريباً من داريا ولاتزال جثته في قلعة دمشق وكتب السلطان الملك السعيد إلى دمشق أن يدفن الملك الظاهر داخل المدينة فاشتري الأمير عز الدين أيدمر نائب الشام دار العقيقي داخل باب الفرج تجاه المدرسة العادلية بستين ألف درهم وجعلها مدرسة وبني بها قبة شاهقة يكون بها الضريح (اليونيني، ١٩٩٢، صفحة ٢٤٦/٣) وانجز البناء في اواخر جمادي الاخرة من السنة نفسها، وفي ليلة الجمعة الخامس رجب حملت جثة الظاهر بيبرس من القلعة الى مكان مدفنها (ابن العسال، ٢٠١٧، صفحة ٢٣٣/١).

سادساً: وصوله الى السلطة:

تولى السلطان الظاهر بيبرس السلطة بعد مقتل السلطان المظفر قطز، لعدم وفائه بالوعد الذي قطعه له في منحه ولاية حلب ، مما أدى إلى أن يسُرّ الأمير بيبرس شيئًا بنفسه تجاه السلطان المظفر قطز، كما ان المظفر قطز كان يتحين الفرصة للخلاص من الامير بيبرس "فاحترس كل منهما من الآخر وعمل في القبض عليه" (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ٥١٩/١)،ولما قرر السلطان المظفر قطز العودة الى القاهرة، بعد ما رتب أمور الشام وعين الولاة على دمشق، وحلب (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٩٩٢، صفحة ٧٧/٧)، عندها صمم الأمير بيبرس البند قداري أن يستغل الفرصة ويقتل السلطان، وقد اتفق مع مجموعة من الامراء البحرية، على قتل السلطان واخذوا يترقبون الفرصة المناسبة ، وسرعان ما حانت الفرصة عند الصالحية فقد اراد السلطان المظفر قطز ان يقوم بجولة صيد فأتبعد عن رفاقه وقد استغل الامير بيبرس ورفاقه هذه الفرصة وطلب من السلطان امرأة من سبي المغول، فأجابه السلطان الى طلبه وانعم عليه (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ٥١٩/١)، وتظاهر الامير بيبرس

بتقبيل يد السلطان اعترافاً بفضله، فقبض بيبرس على يده ليمنعه من الحركة في حين انهال عليه بقيه الامراء بالسيوف، والقوه عن فرسه حتى اجهزوا عليه وانتشر الخبر في المعسكر ان السلطان قتل وكان ذلك يوم السبت ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ/ ٢٤ تشرين الاول ١٢٦٠م (ابو الفداء، ١٩٩٧، صفحة ٢٠٧/٣) بينما يورد المؤرخ ابن عبد الظاهر. ان الامير بيبرس هو الذي ضرب السلطان قطز وقتله (ابن عبد الظاهر، ١٩٤٢، الصفحات ٦٧-٦٨) ويذكر المنصوري. ان انص الاصبهاني وهو أحد المماليك البحرية هو الذي طلب من السلطان الانعام على بيبرس فوافق السلطان وانعم عليه، ثم امسك بيد السلطان ليقبلها فمنعه من الحركة وضربه بيبرس بالسيف حتى قتله (المنصوري، ١٩٩٣، صفحة ١١).

ويورد لنا المقريزي قصة تنصيب الظاهر بيبرس بقوله "فلما قتل قطز سار الأمراء الذين قتلوه إلى الدهليز السلطاني بالصالحية واتفقوا على سلطنة الأمير بيبرس، فقام الأمير أقطاي المستعرب الأتابك، وقال للأمراء عند حضورهم: من قتله منكم. فقال الأمير بيبرس: أنا قتلته. فقال الأمير أقطاي: يا خوندا اجلس في مرتبة السلطنة مكانه. فجلس بيبرس وبايعه أقطاي وحلف له" (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ٥٢٠/١) وتبعه الامراء، وجلس في ايوان القلعة على دست الحكم في ١٥ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ/ ٢٢ تشرين الاول ١٢٦٠م (ابن دقماق، ١٩٨٥، صفحة ٢٩٣). وتلقب بالملك القاهر ابي الفتوح فنصحه العلماء ان يغير هذا اللقب وقال له ما تلقب أحد من الملوك بهذا اللقب وافلح وغير لقبه بالظاهر ابي الفتوح (ابن اياس، ٢٠١٨، صفحة ج١/ق١/٣٠٨).

المبحث الثاني:

أولاً: إحياء الخلافة العباسية في مصر:

إن سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م على يد المغول شكّل موقفًا غريبًا في المجتمع الإسلامي لم يحدث للمسلمين مثل هذا الحدث منذ وفاة الرسول الكريم ﷺ، فالفجوة التي أحدثها غزو المغول لبغداد وقتلهم الخليفة العباسي وآل بيته جميعاً حادثة لم يكن لها مثيل في تاريخ الإسلام والمسلمين (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٩٩٢، صفحة ٤٧/٧).

وعلق المؤرخ السيوطي على حادثة سقوط الخلافة العباسية في بغداد بقوله "هو حديث يأكل الأحاديث، وخبر يطوي الأخبار، وتاريخ ينسي التواريخ، ونازلة تصغر كل نازلة، وفادحة تطبق الأرض، وتملؤها ما بين الطول والعرض" (السيوطي، تاريخ الخلفاء، ٢٠٠٥، صفحة ٣٢٩).

وحاول بعض سلاطين المماليك احياء الخلافة العباسية في مصر إلا ان محاولاتهم لم يكتب لها النجاح حتى جاء السلطان الظاهر بيبرس فكان اول من نفذ فكرة إحياء الخلافة العباسية في القاهرة وذلك عندما وصله الخبر عن طريق نوابه على بلاد الشام الامير علاء الدين طيبرس والامير علاء الدين البندقداري فقد كتب اليه ان هناك رجل ادعى أنه أبو القاسم أحمد الأسمر بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر وهو عم الخليفة المستعصم وأخو المستنصر ومعه جماعة من عرب خفاجة في قريب الخمسين فارساً وأن الأمير سيف الدين قلج البغدادي عرف أمراء العرب المذكورين وقال: بهؤلاء يحصل المقصود، فكتب السلطان إلى النواب بأن يقوموا بخدمته وتعظيم حرمته وأن يسير معه الحجاب من دمشق إلى مصر (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ٥٢٩/١).

وفي ٩رجب سنة٦٥٩هـ/١٢٦١م خرج السلطان الظاهر بيبرس مع كبار رجال دولته والقضاة والاعيان وجميع العسكر وجمهور أعيان القاهرة ومصر والقراء والمؤذنون، وخرجت اليهود بالتوراة والنصارى بالأناجيل، للقاء الامير العباسي (اليونيني، ١٩٩٢، صفحة ٩٥/٢).

فكان اهل مصر مشتاقون لرؤية الخليفة العباسي وكذلك السلطان فجاء الناس افواجاً ينظرون الى الامير الذي يمثل الخلافة الاسلامية فيُذكر ابن بعض الناس كان يتوهم بان الخلافة قد انتهت من الوجود لان هولاكو قصد ان يقطع نسل بني العباس ﷺ عن اخرها، فلما رأوا الامير العباسي فرحوا به فرحاً عظيماً، وحمدوا

الله تعالى الذي ابقى من نسل العباس ﷺ بقية واستبشروا ان تعود الخلافة العباسية فيمن بقى منهم، وما ان رأى السلطان الامير العباسي حتى ترجل عن فرسه احتراماً له وتقدم اليه وعانقه (ابن اياس، ٢٠١٨، صفحة ج١/ق٣١٣/١)، فسار السلطان به إلى باب النصر ودخل إلى القاهرة وقد لبس الشعار العباسي وخرج الناس لرؤيته وكان من أعظم أيام القاهرة وشق القصبة إلى باب زويلة وصعد قلعة الجبل وهو راكب فأنزل في مكان جليل قد هيئ له وبالغ السلطان في إكرامه (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ٥٢٩/١).

ويبدو ان الناس كانوا يتخوفون من ان ذرية بني العباس قد انقطعت على يد المغول بعد ان قتل هولاكو الخليفة العباسي المستعصم بالله وابنائه حتى ظن بعظهم انه لم يبق من ذرية بني العباس الخلفاء أحد لذلك اردا السلطان الظاهر بيبرس ان يزيل الشك من قلوب الناس ولم يبايع الامير العباسي مباشرة بل اراد ان تكون المبايعة في محفل كبير يشهده الناس ويثبت امام الجميع صحة نسب الامير الى بني العباس (ابن اياس، ٢٠١٨، صفحة ج١/ق٣١٣/١).

اراد السلطان ان يثبت نسب الخليفة الجديد وانه ينتمى الى البيت العباسي فعقد مجلساً عاماً بقاعة الاعمدة بقلعة الجبل في ١٣رجب سنة٦٥٩هـ/١٢٦١م حضره القضاة، والعلماء، والامراء، ووجوه الناس وحضر الخليفة والسلطان "وتأدب السلطان معه في الجلوس، فلم يفرش له طراحة، ولم يحط له كرسي ولا منبر" (ابن عبد الظاهر، ١٩٤٢، صفحة ١٠٠)، ثم استدعى جماعة من الذين قدموا مع الامير العباسي من بغداد، فسألهم قاضي القضاة عن نسب الخليفة أهذا هو الامير احمد ابن الخليفة الظاهر بأمر الله، فشهدوا امام الجميع ان الامير ابا القاسم احمد، هو ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ابن الخليفة الناصر لدين الله المتصل النسب الى بني العباس ﷺ، وشهد الحاضرون بصحة النسب، ثم بويع بالخلافة (ابن ايبك، ١٩٦٠، صفحة ٧٣/٨).

وبعد البيعة قلد الخليفة العباسي السلطان المملوكي الظاهر بيبرس "أمور البلاد الإسلاميّة، وما ينضاف إليها بما سيفتحه الله على يديه من البلاد التي بيد الكفّار، ... فقام الناس على قدر مراتبهم وبايعوا الخليفة" (المقريزي، المقفى الكبير، ٢٥٥٦، صفحة ٤٢٦/١).

وأصدر السلطان اوامره الى الامراء والنواب بأخذ البيعة للخليفة العباسي، وامرهم بالدعاء له على المنابر ثم يدعى للسلطان بعده، وان ينقش اسمهما على السكة (القلقشندي، ١٩٩٢، صفحة ٢٧٨/٣).

وفي يوم الجمعة ١٧ رجب سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م سار الخليفة الى المسجد الجامع في القلعة، وهو لابس خلعة الخلافة وهي عمامة سوداء وعباءة سوداء شعار العباسيين، فصعد المنبر وخطب الناس واستهل خطبته بقراءة صدر صورة الانعام وصلى على الرسول الكريم ﷺ وترضى على الصحابة الكرام ﷺ وذكر شرف بني العباس ﷺ، ثم دعا للسلطان وصلى بالناس (ابن دقماق، ١٩٨٥، الصفحات ٢٢٥-٢٢٦).

وآخر ما فوض به الخليفة السلطان المملوكي الظاهر بيبرس أن يقوم بإعادة الخلافة إلى بغداد قائلاً له "وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه من الأيام الأول" (ابن ايبك، ١٩٦٠، صفحة ٧٨/٨).

تمكن السلطان الظاهر بيبرس من خلال احياء الخلافة العباسية أن يحظى بشرعية حكم المسلمين بموجب تفويض الخليفة له بالسلطة ليمارسها نيابة عن الخليفة، وان إحياء الخلافة العباسية في القاهرة جاء نتيجة لوضع المماليك الحرج، فالإسلام لا يسمح بولاية العبيد من غير تفويض، وان صاحب التفويض الشرعي هو الخليفة العباسي في بغداد وقضى عليه المغول، كما ان خوف المماليك من الايوبيين اصحاب الحق الشرعي في الخلافة على المستوى الديني والدنيوي، فضلاً عن الخطر الخارجي الذي كان يهدد دولتهم الفتية والمتمثل بالمغول والصليبيين ومن اجل هذا حرص المماليك على احياء الخلافة العباسية في مصر من جديد (موير، ١٩٩٥، صفحة ٤٨).

تهيأ الخليفة للخروج الى بغداد لإعادة الخلافة العباسية فيها بما امده السلطان من جنود واموال وعتاد، وقد وذكر المقريزي "وكان السلطان قد عزم أن يبعث مع الخليفة عشرة آلاف فارس حتى يستقر ببغداد ... فخلا أحدهم بالسلطان وأشار عليه ألا يفعل: فإن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر، فرجع

إليه الوسواس ولم يبعث مع الخليفة سوي ثلاثمائة" (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ٥٣٧/١)، ويبدو ان سبب تراجع السلطان المملوكي عن مساعدة الخليفة في استعادة الخلافة في بغداد ترجع الى انه فكر في جعل الخلافة في القاهرة ليحظى باحترام كل العالم الاسلامي وتكون القاهرة مقصد جميع المسلمين.

ورحل الخليفة العباسي ومن معه من العساكر القلية متوجهاً إلى بغداد فعلم به المغول وجهز له جيشاً كبيراً والتقى الجيشان في معركة حاسمة انتهت بهزيمة جيش الخليفة ومقتله في ٣ محرم ٦٦٠هـ/ ٢٨ تشرين الثاني ١٢٦٢م (العيني، ٢٠١٠، صفحة ٣٢٨/١؛ محمد ج.، صفحة ٨) ويقال انه نجا مجروحاً وبقي عند طائفة من العرب فمات عندهم فكانت مدة خلافته اقل من سنة (المقريزي، المقفى الكبير، ٢٥٥٦، صفحة ٤٢٩/١).

بعد مقتل الخليفة العباسية المستنصر بالله، انتهت الخلافة العباسية وبقى منصب الخلافة الإسلامية خالياً من الخليفة، وفي يوم الخميس ٨ محرم ٦٦١هـ / ١٢٦٣م عقد السلطان المملوكي مجلساً عاماً في الايوان الكبير في قلعة الجبل احتفالاً بوصول الخليفة العباسي الجديد وهو أبو العباس أحمد، الذي تلقب بالحاكم بأمر الله، وبعد ثبوت نسبه الى البيت العباسي أجريت له المراسم والاحتفالات كالتي أجريت لتنصيب الخليفة المستنصر قبله ثم بايعه الناس على طبقاتهم (السيوطي، تاريخ الخلفاء، ٢٠٠٥، صفحة ٣٣٧).

وبذلك أعيدت الخلافة العباسية مرة أخرى إلى الديار المصرية وجلس الخليفة على كرسي الخلافة من يومهِ وهنالك سعى السلطان الظاهر بيبرس بالعمل على إبقاء سلطة الخليفة مقتصرة على الأمور الدينية، وبذلك أصبح رمزاً دينياً ولا توجد سلطة دنيوية بيده، وأخذ بيبرس مقاليد السلطة من الخليفة الجديد ولقب السلطان الظاهر بيبرس لقباً قسيم أمير المؤمنين ولقب السلطان بـ(قسيم أمير المؤمنين) وكان اول من تلقب بهذا اللقب، فكان السلطان يلقب قبل ذلك بـ(صاحب أمير المؤمنين) واذا أرادوا ان يزيدوا من شأنه قالوا له (خليل امير المؤمنين)، ولقب قسيم أمير المؤمنين وهو أجل وارفع كل هذه الألقاب (السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ١٩٦٨، صفحة ٩٥/٢).

ثانياً: نماذج من فتوحاته وجهاده ضد الصليبيين:

بعد وصول السلطان الظاهر بيبرس الى الحكم وتثبت اركان الدولة والقضاء على الثورات الداخلية بدأ الصدام مع الصليبين في بلاد الشام سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م لنقضهم العهود والمواثيق فقاد حملة عسكرية كبيرة لمحاربة الصليبيين في الشام واخذ يتنقل من مدينة الى اخرى ووفود الصليبين تحاول الوصول اليه وترضيته وعند مقابلتهم وتقريعهم سألهم "ما تقولون قالوا: نتمسك بالهدنة التي بيننا. فقال السلطان: لم لا كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان وإنفاق الأموال التي لو جرت لكانت بحارا" (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، الصفحات ٥٠١/١-٥٠٢)، ولم يوافق على طلبهم وسار حتى وصل غزة وزحف منها الى جبل الطور، وهدم كنيسة الناصرة الى الارض ولم يستطع احد من الصليبين الخروج من عكا، ثم زحف إلى عكا وخربها فأضطر الصليبين إلى مغادرتها وبقيت عملياته الحربية واسعة ضد الصليبين في بلاد الشام (ابن عبد الظاهر، ١٩٤٢، صفحة ٢٣١).

وفي سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م سار السلطان الى الشام لقتال الصليبيين وفتح مدينة قيسارية، فوصلها يوم الخميس ٩ جماد الاولى من السنة نفسها وحاصرها "وهو واقف على سور قيسارية ليهدمه بنفسه" (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ١٨/٢)، ثم نصب عليها المنجنيق وضربها، وبعد ان أدرك اهلها انهم غير قادرين على المقاومة واضطروا إلى تسليمها بعد ستة ايام من حصارها، وقام بهدم أسوارها (العيني، ٢٠١٠، صفحة ٣٩٦/١).

ثم اتجه بعد ذلك إلى قلعة أرسوف، وحاصرها حصاراً شديد وضربها بالمنجنيق وتمكن من فتحها يوم الخميس ١٢ رجب من السنة نفسها، وكان فتحها عصياً اذ كانت المقاومة فيها شديدة واسوارها منيعة، ووجد فيها ذخائر وغلال كثيرة كما وجد فيها عدد من اسرى المسلمين "أطلقوا وقيد الفرنج بقيودهم" (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ٢٣/٢) وامر السلطان ان يتولى الاسرى هدم السور فهدمت

بأيديهم، وساق امامه الاسرى ووصل القاهرة في ١١ شعبان "وشق المدينة والأسارى بين يديه" (النويري، ٢٠٠٤، صفحة ٧٣/٣٠) وبذل العطاء لأمرائه وقواد جيشه لما بذلوه من جهد وأقطع لهم الإقطاعات وقام بمنحهم أثمن الهدايا وأحسنها وافخرها (العيني، ٢٠١٠، صفحة ٣٩٧/١).

وفي شعبان سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م خرج السلطان الظاهر بيبرس من القاهرة على رأس حملة عسكرية لفتح مدينة صفد التي وصلها ٨ رمضان وحاصرها حصاراً شديداً (ابن اياس، ٢٠١٨، صفحة ج١/ق٣٥٢/١) وكان يباشر الحصار بنفسه ويشجع النقابون فوصلت المجانيق في ٢١ رمضان من دمشق والتي تعرقلت عند جسر يعقوب فعجزت الجمال عن جرها فسار السلطان بنفسه ومعه الامراء والجنود وخواصه لنقل الاخشاب فحملت على الرقاب ولما وصلت تم تركيبها في خمسة ايام وباشرت في الرمي على القلعة في ٢٦ رمضان (ابن عبد الظاهر، ١٩٤٢، صفحة ٢٥٧) واشتد الحصار على القلعة وتهدم جزء من السور وادرك الصليبيون عدم جدوى المقاومة وفي يوم الثلاثاء ١٥ شوال ٢٠ تموز ارسل الصليبيون وفداً يطلبون الامان من السلطان وفتح ابواب القلعة، واشترط السلطان عليهم عدم اخذ اي شيء من القلعة وان لا يحرقون أو يخربون شيء منها فنزلوا والسلطان راكب على فرسه باب صفد حتى نزل الجميع ووقفوا بين يديه فامر بتفتيشهم فوجدهم يحملون السلاح والاموال، كما كان بينهم أسري مسلمين ومجموعة من اطفال المسلمين الذين كان مأسورين عندهم أخرجوهم على إنهم نصارى، فامر السلطان باحتجازهم في خيمة واخذ الاموال والسلاح منهم بعدما انزلهم عن خيولهم. وتسلم المسلمون مدينة صفد وقلعتها (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ٣٥/٢).

وعندما استولى السلطان على القلعة امر بإعدام المقاتلين الذين كانت مهمتهم حماية القلعة، لأنهم خالفوا شروط المعاهدة، وان ينفذ بهم امر الاعدام على تل قريب من القلعة، لأنهم كانوا يقتلون المسلمين بنفس المكان وكان عددهم نحوا الفي فارس (ابن العسال، ٢٠١٧، صفحة ١٤٩/١).

وفي يوم الاربعاء ١٩ رجب ٦٦٦هـ/٤نيسان ١٢٦٨م حاصر السلطان الظاهر بيبرس قلعتي شقيف أرنون حصاراً شديداً وبمجرد نزوله عليها نصب عليها منجنيقين ورمى بهما ثاني يوم وصوله وكان معه اكابر العلماء والمشايخ وباشر السلطان الحرب بنفسه وكمل في ايام يسيره ست وعشرين منجنيقاً (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ٤٩/٢)، وكانت ترمي بلا توقف وعند اشتداد الحصار على القلعتين ادرك الصليبين عدم قدرتهم على المقاومة فقرروا التخلي عن احدى القلعتين وغادروها في ٢٦ رجب من السنة نفسها بعدما احرقوا جميع ما بها من غلال وقماش وغيره، وانتقلوا الى القلعة القديمة وفي صباح اليوم التالي استولى المسلمون على القلعة وكانت خراباً (العيني، ٢٠١٠، صفحة ٢٠/٢)، ثم وجهه المسلمون كل المجانيق على القلعة القديمة واشتد الحصار عليها فطلب اهلها الامان من السلطان وان يطلق النساء والاطفال وان يعد المقاتلين اسرى، فوافق السلطان على طلبهم وتم تسليم القلعة يوم الاحد ٣٠ رجب ٦٦٦هـ/١٥ حزيران ١٢٦٨م وارسل النساء والاطفار مع حراسة الى مدينة صور وسلم الجند الى العسكر (ابن عبد الظاهر، ١٩٤٢، الصفحات ٢٩٧-٢٩٨) ثم توجه بعد ذلك الى إلى طرابلس واستولى على المناطق المجاورة لها وقتل من قتل وأسر من ظل على قيد الحياة (النويري، ٢٠٠٤، صفحة ١٩٤/٣٠).

وتوجه السلطان بعدها إلى مدينة أنطاكية، وهي من أقوى القلاع الصليبية والتي كانت تصلها الإمدادات من الدولة الإفرنجية، فوصلها يوم الجمعة ٣ رمضان ٦٦٦هـ/١٨أيار١٢٦٨م، وحاصرها من كل الجوانب وارسل من ينذر اهل المدينة ويطلب منهم الاستسلام على شروط السلطان الا ان القسيسين والرهبان رفضوا الاستسلام فهاجم السلطان المدينة ثاني يوم الاربعاء ٤ رمضان (ابن كثير، ٢٠٠٣، صفحة ٤٧٦/١٧) وقاتل اهل المدينة قتالاً شديداً وتمكن المسلمون من تسور المدينة من جهة الجبل بالقرب من القلعة فهرب اهل المدينة الى القلعة وشرعت العساكر في النهب، والاسر، والقتل وتذكر المصادر ان عدد من حشر في القلعة ثمانية الاف مقاتل من غير الاطفال والنساء، اما قادة المدينة فقد هربوا في الليل تدلو في الحبال مع عدد من جنودهم المقربين وتركوا المدينة والقلعة لمصيرها وفي يوم الاحد خرج الناس يطلبون الامان من القتل وان يؤخذوا اسرى

فوافق السلطان على طلبهم واستلم المدينة (ابن عبد الظاهر، ١٩٤٢، الصفحات ٣٠٧-٣٠٨) وفي اليوم التالي بدأ بتوزيع الغنائم وكانت كثيرة جداً فقسمت النقود بالطاسات والشربوشات الطواقي وتقاسم الناس النساء والاطفال وبيع الصغير بأثني عشر درهما، والجارية بخمسة واشرف السلطان على القسمة بنفسه (النويري، ٢٠٠٤، الصفحات ٢٠٣/٣٠-٢٠٤). ثم سار السلطان إلى القلعة وأحرقها وعم الحريق أنطاكية كلها فأخذ الناس حديد أبوابها ورصاص كنائسها وكانت كثيرة جداً، ثم اقيمت الأسواق خارج المدينة فتوافد التجار عليها من كل مكان (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، الصفحات ٥٠/٢-٥١) وكان بالقرب من أنطاكية عدة حصون منها حصن ديركوش وهو امنعها وحصن شقيف كفر دبين، وحصن شقيف كفر تلميس فلما فتحت انطاكية خاف اصحاب هذه الحصون وادركوا انهم لا يستطيعون الصمود امام جيوش المماليك فطلبوا الامان على انهم يسلمون الحصون ويؤسرون، فأستلم حصن ديركوش في ليلة الجمعة ١١رمضان ٦٦٦هـ/ ٢٥أيار١٢٦٨م وتسلم بقية الحصون واسر من فيها (النويري، ٢٠٠٤، صفحة ٢٠٤/٣٠) وعندما وصلت الاخبار الى مدينة القصير ارسلوا الى السلطان يريدون الدخول في طاعته ويطلبون الهدنة فكتبت لهم هدنة، على ان تكون لهم نصف المدينة والنصف الاخر للسلطان وانضاف إلى مملكة الإسلام نصف بلاد القصير (ابن عبد الظاهر، ١٩٤٢، صفحة ٣٢٥) وعند وصول اخبار سقوط الحصون والقلاع الصليبية بيد السلطان الظاهر بيبرس الى مدينة بغراس واصبحت الجيوش المملوكية قريبة من المدينة هرب اهلها منها فارسل السلطان حملة عسكرية استلم المدينة يوم السبت ١٣ رمضان من السنة نفسها، ولم يجد بها سوى امرأة عجوز، كما وجد كثير من الذخائر (ابن كثير، ٢٠٠٣، صفحة ٤٧٧/١٧).

ثالثاً: نماذج من جلوسه للنظر في المظالم:

النظر في المظالم يعني النظر بتعدي الولاة، والامراء، والقضاة، وكبار رجال الدولة على الرعية، والنظر في استيلاء بعض العمال على الاموال فيسترجع ما استولوا عليه، أو يستردها من ديوان بيت المال إذا كانوا رفعوها إليه (الماوردي، ١٩٨٩، الصفحات ١٠٢-١٠٧)، والنظر في تظلم العامة من أصحاب الأرزاق إذا نقصت أموالهم او تأخرت، وتنفيذ ما يعجز القضاة عن تنفيذه من احكام، والاشراف على الاوقاف العامة والخاصة، ومنع التعدي عليها (القلقشندي، ١٩٩٢، الصفحات ٤٥/٤-٤٦).

يعد السلطان الظاهر بيبرس اول من اهتم اهتماماً كبيراً بمجلس النظر في المظالم فأمر ببناء مقراً لها في دار العدل، وكان جلوسه بها يوميّ الاثنين والخميس من كل اسبوع ويجلس حوله وكبار الموظفين والقضاة، وكانت هذه المجالس تتمتع بحرية كبيرة فيمكن لشخص من عامة الناس ان يقدم شكوى ضد السلطان ويقاضيه ويطلب الحق منه ففي سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م) وعندما كان السلطان جالس في دار العدل للنظر في المظالم تقدم احد الجنود واسمه جمال الدين محمود بشكوى ضد السلطان وادعى انه استولى على بئر كان قد انشأها فلم ينكر عليه السلطان وقبل بالحكم، وحينئذٍ ترك السلطان رئاسة المجلس ليكون الامير فارس الدين اقطاي الصغير اتابك العسكر هو رئيس المجلس ووقف السلطان امام المجلس مع خصمه بالتساوي، وفي اثناء التحقيق حدث تجاذب بين الطرفين، وبعد شهادة الشهود واقامة البينة، ثبت ان الحق للسلطان، وان البئر له وان الجندي له البناء فخُيّر بان يزيل بناءه أو ان يأخذ ثمنه فأختار الجندي اخذ الثمن، وتعهد السلطان بدفع الثمن كتعويض للجندي، كما ارسل السلطان هدية ثمينة الى رئيس المجلس والقضاة لمباشرتهم هذه القضية والحياد فيها (ابن عبد الظاهر، ١٩٤٢، الصفحات ٨٤-٨٥).

وفي رجب سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٤م)، جلس السلطان الظاهر بيبرس بدار العدل للنظر في المظالم، فقدم احد الجنود شكوى وكان معه طفل صغير، فقال: أنا وصي هذا الصغير وشكا من ظلم وقع على الطفل، فقال السلطان لقاضي القضاة: أعلم أن الأجناد عندما يموت احدهم يستولي خشداشيته على امواله ويجعل اليتيم خادماً له، واذا مات اليتيم استولي الوصي على املاكه، أو اذا كبر اليتيم لم يجد شيئاً من امواله وليس له حجة على املاكه، وقد يموت الوصي فيختلط مال اليتيم مع اموال الوصي ويضع حق اليتيم، وأنا أرى ألا ينفرد أحد

من الأوصياء بوصية، وأن يكون نظر الشرع شاملاً، وأموال اليتامى مضبوطة، وأمناء الحكم يحفظون اموالهم وطلب نواب الأمراء ونقباء العساكر وأمرهم بذلك (النويري، ٢٠٠٤، صفحة ٦١/٣٠).

وفي سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٣م) عقد السلطان الظاهر بيبرس مجلس بدار العدل حضره مجموعة من الجند وتحدث اليهم في حفظ اموالهم ومما قال: ذا كان الجندي في احد مواطن الجهاد ولا يمكن ان يصل له شاهد، فيُشهد أحدهم أصحابه عند موته بوصيته في ماله وغيره، وحينما يحضر الى القاضي بوصية الجندي المتوفي ولا تقبل شهادته، مما جعل حقوق واموال الناس تضيع، فأقترح السلطان بأن يعيّن على كل مجموعة من الجند أمير من اهل الصلاح والخير ويكون من الجنود انفسهم ليكون شاهداً لأصحابه، ويسمع كلامهم حتى تحفظ أموال الناس ولا تضيع الحقوق، ففرح الامراء والجنود بذلك وبدأ قاضي القضاة في اختيار اهل الصلاح والخير من الجند (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ٢٦/٢).

المبحث الثالث:

أولاً: اهتمامه بدور العبادة والأوقاف:

اهتم سلاطين المماليك بالأوقاف اهتماماً كبيراً ولا سيما اوقاف دور العبادة ومؤسستها، حيث كانت الأوقاف هي المصدر الاساسي للأنفاق على تلك المؤسسات، ولهذا زادت أعدادها وتضاعفت أدوارها في طلب العلم بمختلف إعمار الناس، وتزايدت الأوقاف في كل اماكن الدولة المملوكية مثل الحجاز وفلسطين، وذلك لوجود الأماكن المقدسة فيها مثل بيت الله الحرام كالمسجد والمسجد النبوي الشريف في الحجاز، والأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة في القدس، ولهذه الأماكن قدسية خاصة في نفوس المسلمين، ففي سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م ارسل السلطان الظاهر بيبرس (٥٣) رجلاً من امهر العمال والصناع وارسل معهم الأخشاب والحديد والرصاص والآلات لتجديد الحرم النبوي الشريف، وأنفق عليهم الاموال وجهز معهم المئونة (النويري، ٢٠٠٤، صفحة ٧٤/٣٠) وفي السنة نفسها وصلت الاخبار ان القبة التي تعلو الصخرة الشريفة في القدس الشريف قد تداعت وعلى وشك السقوط فارسل السلطان كتاباً الى والي دمشق بتجهيز الصناع وكل ما يحتاجون اليه من الآلات وانجز العمل في السنة التالية (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ٥٢٦/١).

وكانت عدة ضياع من أوقاف الخليل عليه السلام قد دخلت ضمن أقطاعات بعض الامراء واستولوا عليها، فأمر السلطان بإرجاعها، وعوض الأمراء عنها، وأعادها إلى اوقاف الخليل، وأوقف حاصلات قرية أذنا عليها (النويري، ٢٠٠٤، صفحة ١٠/٣٠).

وفي سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م زار السلطان الظاهر بيبرس مدينة القدس، وتفقد أوقافها وأمر بإعمار ما تحتاجه من العمائر في المسجد الأقصى، وأوقف خمسة آلاف درهم سنوياً لترميمه، وأوقف بعض القرى بإعمال الشام والقدس للمسجد الأقصى، وبنا جامع في قلعة قاقون بفلسطين أوقف عليه اوقاف جليلة وبنى فيه حوض ماء للسبيل، وإصلاح جامع زرعين، وأوقف عليه الأوقاف ما يلزم وظائفه والعاملين به كما اهتم بعمارة المسجد الاقصى وجدد فصوص الصخرة التي على الرخام واوقف نصف حاصلات قرية لفتا وغيرها من القرى لصالح المسجد (الصفدي، ٢٠٠٠، صفحة ٢١٣/١٠).

وفي سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م أصدر مرسوماً الى ولاة وموظفي بلاد الشام يأمرهم ان تبقى ناحية العوجا في الغور وقفاً للقدس وان يكون ريعها كله لصالحها (النويري، ٢٠٠٤، صفحة ٢٧/٣٠).

وفي سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م امر بتجديد وزيادة الحرم الإبراهيمي وملحقاته وأصبحت مقامات الأنبياء وزوجاتهم مملوكية البناء، كما قام في السنة نفسها بتجديد قبر الخليل عليه السلام وزاد الرواتب التي تصرف على المقيمين عليها ورتب الأخشاب والأبواب وأصلح المطاهر وأماكن الوضوء (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ٤/٢)، كما جدد قبة السلسلة في القدس وزخرفها وأنشأ فيها خاناً لإقامة الزائرين وجعله للسبيل ونقل بابه من القاهرة، وبنى به مسجداً وطاحونة وفرناً وبستاناً كما بنى على قبر سيدنا موسى عليه السلام قبّة ومسجداً ووقف عليه وقفاً (الصفدي، ٢٠٠٠، صفحة ٢١٣/١٠) فقد امر بترميم المسجد النبوي الشريف فبيّض

جدرانه، وجدد منبره، وطلا سقوفه بالذهب وأتمم إعماره على أكمل وجه، كما امر بترميمه بيت الله الحرام وتبديل كسوة الكعبة المشرفة وأنفق عليه الأموال من اجل خدمة الزائرين والحجيج والمقيمين على خدمته (الصفدي، ٢٠٠٠، صفحة ٢١٣/١٠)، وفي بلاد الشام قام ببناء جامعاً في قلعة صفد، وهذا الجامع يتوسط المدينة، الذي يعد تحفة معمارية حاضرة حتى يومنا هذا، والذي يعرف اليوم باسمه جامع الأحمر، ويسمى بهذا الاسم نسبة إلى بنائه بالحجر الأحمر، وأطلق عليه جامع الأحمر (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٩٩٢، صفحة ١٩٥/٧).

وقام السلطان الظاهر بيبرس بتجديد وترميم الجامع الابيض في مدينة الرملة وعمل على إعمار قبة الجامع وجدد عمارة الباب الذي يقابل المحراب، وقام بإعادة إعمار منارة الجامع القديمة وجددها (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٩٩٢، صفحة ١٩٥/٧).

وعمر في مدينة اللد جامعاً فوق أنقاض كنيسة صليبية متهدمة، وأطلق عليه اسم الجامع الكبير، وأخذت أحجار البناء والأعمدة من بقايا تلك الكنيسة، نقش اسم السلطان الظاهر بيبرس على المسجد بتاريخ البناء سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م (ابن كثير، ٢٠٠٣، صفحة ٤٣٥/١٧) ويرى ابن عبد الظاهر أن السلطان الظاهر بيبرس أمر ببناء الجوامع والمساجد بهذه البلاد يقصد المنطقة الساحلية، هو إظهار شعائر الإسلام، وإزالة المنكرات منها (ابن عبد الظاهر، ١٩٤٢، صفحة ٢٩٣) وفي سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م توجّه السلطان الظاهر بيبرس إلى حمص في بلاد الشام وأمر بإبطال الخمور، وإزالة المنكرات، وبناء مسجد في مدينة حمص، ويعدّ المسجد الجامع هذا من أكبر المساجد في بلاد الشام (المقريزي، المواعظ الاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية، ١٩٩٨، صفحة ١٠١/٤).

وعند دخول السلطان الظاهر بيبرس دمشق سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م زار جامع دمشق، وكان الجامع شبه الخان لنوم المسافرين والزائرين وعابري السبيل هم وحوائجهم، فلم يرضى السلطان بهذه الفوضى وأمر ان يغير نظام المسجد واخراج تلك الخزائن وامر بترميم المسجد، وغسل رخامه وتحسينه وتبديل فرشه وسجاده وتبديل الحصر والبسط، وإزالة الفوضى منه وزاد في توسعته فأصبح واسعاً (ابن كثير، ٢٠٠٣، صفحة ٤٣٥/١٧).

وفي قلعة الشقيف بنى السلطان الظاهر بيبرس مسجداً كبيراً لأهلها لأنهم كانوا يقيمون الصلوات في أعالي القلاع ورؤوس الجبال، وكذلك عمر جامعاً في قلعة صرخد، بعد أن أتم عمارتها (القلقشندي، ١٩٩٢، صفحة ١١١/٤) .

ويذكر ابن تغري بردي أن الظاهر بيبرس قام بإعمار المساجد، والخوانق والزوايا، والربط واعتنى بالمؤسسات الدينية، ففاق ما قام بإعماره سلاطين المماليك قاطبة (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٩٩٢، صفحة ١٩٦/٧).

اما في مصر فقد اوقف السلطان الظاهر بيبرس عدة اوقاف واعمال خيرية، ومنها وقف مكاناً يطلق عليه الطرحاء، وهو مكان لتغسيل الأموات من فقراء المسلمين وتكفينهم ودفنهم، وكان كثير من الناس يصنعون التوابيت لنقل الموتى ويعدُّ هذا الوقف من الأوقاف الأكثر نفعاً للمسلمين ولا سيما في اوقات انتشار الامراض والطواعين (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ٩٩/٢).

ومن الأوقاف التي أوقفها السلطان الظاهر بيبرس على المسجد الذي بجوار دير البعل وهو من أحسن المساجد في مصر في ذلك الوقت ورتب له الأوقاف الجليلة (المقريزي، المواعظ الاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية، ١٩٩٨، صفحة ٢٧٣/٤).

وفي شهر رجب سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م أكمل السلطان الظاهر بيبرس بناء مسجد بالقرب من المشهد الحسيني، وهو بدار العدل، وأنفق عليه من الاموال الشيء الكثير وعندما أكمل عمارته قال هذا المسجد لله تعالى (المقريزي، المواعظ الاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية، ١٩٩٨، صفحة ٢٧٩/٤).

ومن المساجد الإسلامية التي قام بترميمها وإصلاحها الجامع العتيق، او ما يسمى بتاج الجوامع وقد هذا المسجد محتفظاً بهيبته على الرغم من بناء عدد كبير من المساجد بعده (الجبوري، ٢٠١٢، صفحة ٣)، وبدأ الإعمار به وعمر المتصدع من أركانه وجدرانه وبيضه ورتب سقوفه وكساه وفرشه، وأمر بزيادة العمد فيه وبنى له مقصورة جديدة حسنه، وأكمل بنائهُ وصلى فيه في رمضان سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م وأوقف عليه الأوقاف (المقريزي، المواعظ الاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية، ١٩٩٨، الصفحات ٤/١٥-١٦).

كما جدد السلطان الظاهر بيبرس جامع الأنور، حيث رمم أجزاء المسجد كلها، فامر بترتيب سقوفه وبدهان جدرانه، وتجديد البلاط والمفروشات كما جدد الأبواب والنوافذ وأصلح المآذن وأنفق عليه أموالاً كثيرة كما وقف عليه اوقاف كثيرة (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٩٩٢، صفحة ٧/١٩٢)، ومن الجوامع التي امر ببنائها جامع العافية، وأنفق علية ألف ألف درهم، وبنى بالقرب منه حماماً، وطاحونة، وزاوية فرناً (الصفدي، ٢٠٠٠، صفحة ١٠/٢١٢).

وجدد عدة جوامع في الديار المصرية ومنها جامع الأقمر، الذي عمل على الاعتناء به وترميمه وتجديده وغير البلاط وجدد الفرش ورمم سقوفه وجدرانه وقام بطلائها بالدهان ورتبها كسابق عهدها، وأمر أن تقام فيه خطب الجمعة (القلقشندي، ١٩٩٢، الصفحات ٣/٤١١-٤١٢).

لم يقتصر السلطان المملوكي في بناء واعمار المساجد على مصر فقط، وإنما شملت الحجاز وبلاد الشام، وكان للحجاز النصيب الوافر والاهتمام الكبير من قبل السلطان.

ثانياً: احتفالاته بالمناسبات والأعياد الدينية:

احتفل المماليك من السلاطين والعامة بالأعياد والمناسبات الدينة ومن هذه الاعياد الاحتفال بقدوم شهر رمضان المبارك فكانوا يحرصون اشد الحرص على رؤية الهلال فيخرج عدد من العلماء والمشايخ، والوجهاء مع القاضي لرؤية الهلال وكان يخرج المحتسب ومعه الشهود ليشهدوا برؤية الهلال ويسمى هذا اليوم يوم ارتقاب الهلال وسماه ابن بطوطة يوم الركبة (ابن بطوطة، ١٩٩٧، صفحة ١/٢٠)، ومن المظاهر الدينية المتعلقة بهذا الشهر الفضيل هو ما اصطلح على تسميته بموائد الرحمن، فكان سلاطين المماليك يرتبون المطابخ لتوزيع الاطعمة على الجوامع والمساجد للفقراء وابناء السبيل، والمغتربين وغيرهم طوال هذا الشهر الفضيل حتى وصل عدد من كانوا يستفيدون من هذه المطابخ في عصر السلطان الظاهر بيبرس في اليوم الواحد من الفقراء اكثر من خمسة آلاف شخص (السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ١٩٦٨، صفحة ٢/٩٦).

ومن مظاهر الاحتفال بشهر رمضان كان السلاطين المماليك يخرجون للتنزه في هذا الشهر الى اماكن متعددة كالأهرامات وبركة الحبش، وميدان القبق فكثيرا ما كانت تقضى ايام هذا الشهر في اللعب والتسالي في نهار رمضان ليمر وقت الصوم دون عناء فكان ينزل السلطان الظاهر بيبرس إلى ميدان القبق ليلعب به لعبة القبق "ورمي النشاب هو ومماليكه، ففي رمضان سنة (٦٧٢هـ/١٢٧٣م) امر السلطان الظاهر بيبرس عساكره بالتأهب للركوب واللعب بالقبق ورمي النشاب، كما أمر برش ميدان القبق تحت القلعة، وكان يوما شديد الحرّ، فأمر السلطان بترك الرش رحمة بالناس، وقال: "الناس صيام وهذا يوم شديد الحرّ، فبطل الرش" (المقريزي، المواعظ الاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية، ١٩٩٨، صفحة ٣/٢١٠)، واخذوا في اللعب ومعهم السلطان فكل من اصاب الهدف امر له السلطان فرساً من خيوله بما عليه، ولكل مملوك أو جندي خلعة تليق به (النويري، ٢٠٠٤، صفحة ٣٠/٦٤).

احتفل السلطان الظاهر بيبرس بعيدي الفطر والأضحى المباركين، ففي آخر أيام شهر رمضان يصعد ناظر الخاص الى القلعة في موكب مهيب وكبير ويصحبه عدد كبير من الحمالين يحملون خلع العيد لحملها الى السلطان (ابن اياس، ٢٠١٨، صفحة ج١/ق١/٣٧٤).

وكان السلطان الظاهر بيبرس يخرج في هذا اليوم في موكب مهيب وكبير يدل على الترف والبذخ، وبصحبة كبار رجال الدولة وقدم لنا القلقشندي وصفاً دقيقاً لخروج السلطان لصلاة العيد إذ يركب السلطان

من باب قصره وينزل من منفذة من الإصطبل إلى الميدان الملاصق له، وقد ضرب له فيه دهليز على أكمل ما يكون من الهيئة، ويحضر خطيب جامع القلعة إلى الميدان فيصلي به صلاة العيد ويستمع للخطبة، فإذا فرغ من سماع الخطبة ركب وخرج من باب الميدان والأمراء والمماليك يمشون حوله، وعلى رأسه العصائب السلطانية، والغاشية محمولة أمامه، والمظلة (الجتر) محمول على رأسه مع أحد أكابر الأمراء المقدمين وهو راكب فرسا وارباب الوظائف يمشون امامه (القلقشندي، ١٩٩٢، الصفحات ٤/٤٧-٤٨).

وكان الموكب يتوجه الى الميدان حيث تنصب خيمة كبيرة يقام فيها الاحتفال ويحضر الصلاة عدد كبير من الامراء واصحاب المناصب والاجناد وبعد انتهاء الصلاة يوزع السلطان الخلع الخاصة بالعيد على كبار الامراء، وبما فيها الخلعة التي صلى فيها السلطان الذي عادة ما يتركها لاحد قواده، وكان السلطان يجلس على العرش في الايوان، وقد لبس كل منهم ما منحه السلطان من افخر الملابس، ثم يمد سماطاً فخماً بالغوا فيه في بعض السنوات "وبلغ مصروف السماط في كلّ يوم عيد الفطر من كلّ سنة، خمسين ألف درهم" (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ٣/٤٢٥).

وفي يوم عيد الفطر سنة (٦٥٩هـ/١٢٦٠م) ركب السلطان الظاهر بيبرس في موكب مهيب ومعه الخليفة العباسي المنتصر بالله احمد ورفعت فوقهم المظلة وصليا صلاة العيد وحضر الخليفة إلى خيمة السلطان التي كانت قد نصبت له وألبسه ملابس الفتوة وحضر هذا الاحتفال اكابر الدولة من الامراء، والأجناد، والركبان، وكان المشاة أكثر من غيرهم، وقد انتظم له القوم في صفين من باب القصر إلى المصلى (القلقشندي، ١٩٩٢، صفحة ٣/٥٨٦).

اما مظاهر عيد الأضحى الذي تختلف نسبياً عن عيد الفطر حيث يبدأ في العاشر من ذي الحجة لمدة أربع أيام، فمع اقتراب يوم وقفة عرفات يستعد السلطان للاحتفال بهذا اليوم ، فقد اعتاد سلاطين المماليك مع دخول شهر ذي الحجة النزول الى الاصطبلات السلطانية الموجودة تحت القلعة بالميدان لعرض الخيل ليختار الفرس الذى سيركبه في موكب العيد وتقرع الطبول في هذا العرض، ويوم العيد ينزل السلطان في موكب مهيب يشبه موكب عيد الفطر لابساً الخلعة السلطانية المنقوش عليها اسمه التي اعدت لصلاة العيد، ويركب فرسه الذى اختاره في العرض ويسير الموكب برسوم السلطنة (القلقشندي، ١٩٩٢، الصفحات ٣/٤٢٥-٤٢٧).

وبعد الانتهاء من الخطبة وصلاة العيد يتوجه السلطان إلى الايوان بالقلعة، ويذبح في هذا اليوم في ثلاثة أماكن بالقلعة الاول ينحر ويذبح في الايوان ثم يتحول إلى باب الستارة فينحر ويذبح هناك ثم ينتقل إلى الحوش لينحر ويذبح هناك للمرة الثالثة، ويجتمع في هذا اليوم بالقلعة عدد كبير من الفقراء والمساكين، والايتام، والارامل ومعهم الامراء فيبدأ السلطان بتوزيع الاضحيات عليهم ويكون بجانبه امير سلاح ليناول السلطان السلاح للذبح (القلقشندي، ١٩٩٢، الصفحات ٤/٤٧-٤٨) ،وقد استحدث السلطان الظاهر بيبرس هذه الوظيفة ليحاكي بها مظاهر السلطة في دولة التتار واستمرت عادات السلاطين في نحر الاضحيات بهذه الأماكن طوال حكم المماليك البحرية (ابن اياس، ٢٠١٨، صفحة ٤/٣٢٢).

كما عيد السلطان الظاهر بيبرس عيد الأضحى سنة(٦٦١هـ/١٢٦٢م)، وصلى صلاة العيد، ونحر الأضاحي (النويري، ٢٠٠٤، صفحة ٣٠/٦٨)، وكان ينال من الأضحية الكثير من العامة والفقراء، والمساكين، والأيتام وجهات البر مع الجوامع، والمدارس، والزوايا وكانت توزع على الطلبة والقرّاء وسائر أرباب الوظائف (المقريزي، المواعظ الاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية، ١٩٩٨، صفحة ٤/٢٣٠).

واحتفل السلطان الظاهر بيبرس بالمولد النبوي الشريف احتفالاً كبيراً يتناسب وما عرف عن سلاطين المماليك من رفاهية وبذخ، ويبدأ الاحتفال بالمولد النبوي الشريف مع مطلع شهر ربيع الاول، ويستمر الى الثاني عشر منه، إذ يصادف مولد الرسول الكريم محمد ﷺ وتنصب خيمة المولد في الحوش السلطاني في قلعة الجبل وهي خيمة عظيمة وفيها افخر انواع الفرش (ابن اياس، ٢٠١٨، الصفحات ٣/١٦-١٧)، ايذاناً ببداية الاحتفال الرسمي ويوضع عند ابوابها احواض من الجلد مملوءة بالماء المحلى بالسكر والليمون، ثم تعلق حولها الاكواب

المزخرفة والمنقوشة المصنوعة من النحاس الاصفر، وتربط هذه الاكواب بسلاسل من النحاس، وحولها مجموعة من الخدم الشراب خاناه، مهمتهم خدمة الوافدين من الناس ويناولونهم اكواب الشراب لا فرق بين صغير وكبير، وغني وفقير، ويبدأ الاحتفال الرسمي ظهراً واحياناً بعد العصر، ويستمر إلى ثلث الليل، وعند وصول السلطان يجلس في صدر الخيمة ويجلس عن يمينه شيخ الاسلام وعن يساره قضاة القضاء الأربعة، وشيوخ العلم، ويجلس الأمراء كل حسب مرتبته (ابن حجر العسقلاني، ١٩٩٦، صفحة ٣٦٥/٣).

ويبدأ الاحتفال بقراءة آيات من القرآن الكريم، وكلما فرغ أحدهم من التلاوة انعم عليه السلطان، ثم يقوم الوعاظ بإلقاء مواعظهم على الحضور، وكلما فرغ أحدهم من الوعظ اعطاه السلطان صرة فيها مبلغ من المال (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٩٩٢، صفحة ٧٣/١٢).

وتمد اسمطة الأطعمة الفاخرة بعد صلاة المغرب فيأكل منها الجميع ويحمل الباقي، وبعد الانتهاء من الطعام تمد أسمطة الحلوى السكرية، وامتازت الصحون التي توضع على هذه الاسمطة بالكبر والاتساع (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٩٩٢، صفحة ٧٣/١٢).

وبعد الانتهاء من الطعام يبدأ المنشدون ينشدون ويتغنون بمدح الرسول الكريم ﷺ ويذكرون مناقبه ومفاخره، وبعدها يأتي الخليفة العباسي والقضاة والامراء وطائفة من الجند فينعم عليهم بالخلع والمنح، ويستمر السماع للذكر حتى الفجر (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ٤٠٩/٥).

ثالثاً: حج السلطان الظاهر بيبرس:

حج السلطان الظاهر بيبرس حجة واحدة سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م وحرص في خروجه لإداء هذه الفريضة على السرية التامة فمع دخول شهر شوال عزم على الخروج الى الديار المقدسة وانفق الاموال الكثيرة على الجيش وقسمهم الى مجموعتين الاولى عليهم الأمير أقوش الرومي وهذه تسير مع السلطان واما المجموعة الاخرى عليهم الأمير آقسنقر الفارقاني وطلب منهم السير إلى دمشق فنزلوا بظاهرها، وسار السلطان إلى الكرك وكان يحيط بسفره السرية التامة حتى إنه جهز لوازم السفر من البشماط والدقيق، والروايا، والقرب، والأشربة، والاطعمة، والحجاج الذين اختارهم للحج معه، فلما وصل الكرك وجد الأمور كلها مجهزة فسارت الاثقال وتبعهم السلطان بمن معه فنزل الشوبك، وسار البريد إلى مصر فجهزت الكتب إليه مع صاحب البريد من الكرك فكتبت أجوبتها من هناك (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، الصفحات ٦٠/٢-٦١).

وكان يرافقه في هذه الرحلة مجموعة من الامراء المقربين وقاضي القضاة صدر الدين سليمان الحنفي، وعدد من والجنود وثلاثمائة مملوك وجعل على كل اربعين عسكرياً قائداً عليهم، وخصص له راتباً قدره ألف وخمسمائة دينار واما الجندي فكان راتبه مائتين وخمسين ديناراً (المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، ٢٠٠٠)، ووصلوا الى المدينة المنورة وزار قبر الرسول الكريم ﷺ ثم رحلوا منها الى مكة المكرمة، وكان سفرهم على خيل البريد من المدينة المنورة الى مكة المكرمة كلما وصل الى بريد ركب الخيل التي فيه ونزل عن التي ركبها وتركت خيولهم وجمالهم في مكانها الى بعد الفراغ من الحج، ورجوعهم إليها (ابن فهد، ١٩٨٤، صفحة ٩٥/٣).

دخل السلطان الظاهر بيبرس مكة المكرمة في الخامس من ذي الحجة وأعطي خواصه الاموال ليفرقوها سراً على أهل الحرمين وصار كواحد من الناس لا يحجبه أحد ولا يحرسه إلا الله وهو منفرد يصلي ويطوف ويسعى وغسل البيت وصار في وسط الخلائق وكل من رمي إليه إحرامه غسله وناوله إياه، وجلس على باب البيت وأخذ بأيدي الناس ليطلعهم إلى البيت فتعلق بعض العامة بإحرامه ليطلع فقطعه وكاد يرمي السلطان إلى الأرض وهو مستبشر بجميع ذلك وعلق كسوة البيت الحرام بيده وكان يسير معه قاضي القضاة صدر الدين سليمان بن عبد الحق الحنفي يستفتيه ويتفهم منه أمر دينه (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٩٩٧، صفحة ٦١/٢).

وبعد ان اتم مناسك الحج غادر مكة المكرمة الى دمشق، ومنها الى القاهرة التي وصلها في صفر سنة (٦٦٧هـ/١٢٦٩م) وعليه عباءته التي حج بها ولم يغيرها نحو خمسة وسبعين يوماً (النويري، ٢٠٠٤، صفحة ١٠٩/٣٠).

الخاتمة:

بعد الانتهاء من دراسة الجوانب الدينية للسلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٧م) توصلت الدراسة الى النتائج الأتية:

١. يعد السلطان الظاهر بيبرس اقوى سلاطين دولة المماليك البحرية والمؤسس الفعلي لها، اصله مملوك من بلاد القبجاق، بيع بأسواق النخاسة بثمن زهيد حتى وصل الى خدمة السلطان المملوكي نجم الدين ايوب، وترقى في المناصب حتى اصبح قائد الجيوش، ثم سلطاناً وكان يتصف بالأخلاق الحميدة والشجاعة النادرة.

٢. تزوج السلطان الظاهر بيبرس خمس نساء وأنجب عشرة اولاد ثلاثة ذكور وسبع بنات، وتوفي أثر حمى اصابته بعد ان حكم سبعة عشر سنة وشهرين واثنتي عشر يوماً، وخلفه ابنه السعيد بركة في الحكم، وكان وصوله الى الحكم عسيراً بعد ان قتل السلطان المملوكي المظفر قطر بعد معركة عين جالوت.

٣. اهم الاعمال التي قام بها هو احياء الخلافة العباسية في القاهرة بعد اسقاطها على يد هولاكو وقتله اخر الخلفاء العباسيين وكانت هناك عدة محاولات لإحياء الخلافة قبل الظاهر بيبرس ولكن لم يكتب لها النجاح، فقد استقبل الظاهر الأمير العباسي ابو القاسم احمد استقبالاً حافلاً واقام له مراسيم تتويج كبيرة وامر ان يكون الدعاء له مع الخليفة وسكة العملة باسمهما بعد اثبات نسبه الى بني العباس.

٤. بعد وصول السلطان الظاهر بيبرس الى الحكم وتثبت اركان الدولة والقضاء على الثورات الداخلية بدأ الصدام مع الصليبين في بلاد الشام وحرر عدد كبير من المدن والقلاع ومنها قيسارية وارسوف، وفتح مدينة صفد وقلعتي شقيف أرنون، ثم توجه بعدها إلى مدينة أنطاكية، وهي من أقوى القلاع الصليبية وتمكن من فتحها كما فتح قلاع ومدن اخرى واعادها الى حاضرة الاسلام.

٥. اهتم السلطان الظاهر بيبرس بالعدل وكان حريصاً على عدم وقوع الظلم على الرعية من قبل الولاة والامراء، والقضاة، وكبار رجال الدولة اهتم اهتماماً كبيراً بمجلس النظر في المظالم فأمر ببناء مقراً لها في دار العدل وكان يجلس فيها يوميّ الاثنين والخميس من كل اسبوع، وكان يستطيع اي شخص ان يقدم شكوى ضد اي مسؤول بالدولة حتى لو كان السلطان نفسه.

٦. كان السلطان الظاهر بيبرس من أكثر السلاطين المماليك اهتماماً بدور العبادة والاماكن المقدسة فقد رمم عدد كبير من المساجد والجوامع ودور العبادة ولا سيما في الحجاز وبلاد الشام، كما امر ببناء عدد كبير من المساجد ودور العبادة واوقف عليها الاوقاف.

المصادروالمراجع:

ابراهيم بن محمد بن ايدمر ابن دقماق. (١٩٨٥). الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين. (تحقيق:محمد كمال الدين) بيروت: عالم الكتب.

ابن ايبك صلاح الدين الصفدي. (٢٠٠٠). الوافي بالوفيات. بيبروت: دار احياء التراث.

ابو بكر بن عبدالله ابن ايبك. (١٩٦٠). كنز الدرر وجامع الغرر. (تحقيق:روبرت رويمر هانس،) القاهرة.

ابي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي. (١٩٨٩). الأحكام السلطانية والولايات الدينية. (تحقيق: احمد مبارك البغدادي) الكويت: مكتبة دار ابن قتيبة.

احمد بن علي القلقشندي. (١٩٩٢). صبح الاعشى في صناعة الإنشا. (تحقيق: محمد شمس الدين) القاهرة: دار الكتب المصرية.

احمد بن علي المقريزي. (١٩٩٧). السلوك لمعرفة دول الملوك. (تحقيق: محمد عبد القادر عطا) بيروت: دار الكتب العلمية.

احمد بن علي المقريزي. (١٩٩٨). المواعظ الاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية. (تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي) القاهرة: مكتة مدبولي.

احمد بن علي المقريزي. (٢٠٠٠). الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك. (تحقيق: جمال الدين الشيال) بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية.

احمد بن علي المقريزي. (٢٥٥٦). المقفى الكبير. (تحقيق: محمد اليعلاوي) بيروت: الغرب الاسلامي.

السير وليم موير. (١٩٩٥). تاريخ دولة المماليك في مصر. (ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن) القاهرة: مكتبة مدبولي.

الصفدي، صلاح الدين ابن ايبك. (٢٠٠٠). الوافي بالوفيات. بيبروت: دار احياء التراث.

النجم عمر بن فهد بن محمد المكي ابن فهد. (١٩٨٤). إتحاف الورى بأخبار ام القرى. (تحقيق: فهيم محمد شلتوت) مكة المكرمة: مركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي.

بدر الدين محمود بن احمد العيني. (٢٠١٠). عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان "عصر سلاطين المماليك". (تحقيق: محمد محمد امين) القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

جاسم محمد جاسم محمد. (بلا تاريخ). الأهمية السياسية والعسكرية لقيام دولة المماليك البحرية في مصر وبلاد الشام ٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م. مجلة جامعة كركوك/ للعلوم الانسانية(العدد ١ المجلد ٦).

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. (١٩٦٨). حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. (تحقيق:محمد ابو الفضل ابراهيم) القاهرة: دار احياء الكتب العربية.

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. (٢٠٠٥). تاريخ الخلفاء. (تحقيق : احمد ابراهيم زهو وسيعد بن احمد العبدوسي) بيروت: دار الكتاب العربي.

جمال الدين ابو المحاسن ابن تغري بردي. (١٩٨٤). المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي. (تحقيق:محمد امين) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

جمال الدين ابو المحاسن ابن تغري بردي. (١٩٩٢). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. (محمد حسين شمس الدين) بيروت: دار الكتب العلمية.

جمال الدين ابو المحاسن ابن تغري بردي. (١٩٩٧). موارد اللطافة في من ولي السلطة والخلافة. (تحقيق: نبيل عبد العزيز احمد) القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية.

خير الدين محمود بن محمد الزركلي. (٢٠٠٢). الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، (المجلد ١٥). بيروت: دار العلم للملايين.

ركن الدين بيبرس بن عبدالله الخطائي المنصوري. (١٩٩٣). مختار الاخبار، تاريخ الدولة الايوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة(٧٠٢هـ/١٣٠٢م). (تحقيق:عبد الحميد صالح حمدان) القاهرة.

س موستراس. (٢٠٠٢). المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية. (ترجمة: عصام محمد الشحات، المترجمون) بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع.

شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري. (٢٠٠٤). نهاية الارب في فنون الادب. (تحقيق: نجيب مصطفى وحكمت كشلي) بيروت: دار الكتب العلمية.

شهاب الدين احمد بن علي ابن حجر العسقلاني. (١٩٩٦). إنباء الغمر بأبناء العمر. (تحقيق: حسن حبشي) القاهرة: المجلس الاعلى للشئون الاسلامية-لجنة احياء التراث الإسلامي.

شهاب الدين بن عبدالله ياقوت الحموي. (٢٠٠٧). معجم البلدان. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر.

صالح احمد صالح الجبوري. (٢٠١٢). دور الجوامع والمساجد في التعليم في مصر في عهد المماليك البحرية. مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية(المجلد٧/العدد٣).

عماد الدين اسماعيل ابن كثير. (٢٠٠٣). البداية والنهاية. (تحقيق:عبدالله المحسن التركي) الرياض: دار عالم الكتب.

عماد الدين اسماعيل علي بن محمود ابو الفداء. (١٩٩٧). المختصر في تاريخ البشر. (تحقيق: محمود ديوب) القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية.

قطب الدين ابو الفتح موسى بن محمد اليونيني. (١٩٩٢). ذيل مآة الزمان. القاهرة: دار الكتاب الاسلامي.

محمد احمد دهمان. (١٩٩٠). معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي. بيروت: دار الفكر المعاصر.

محمد بن احمد الحنفي ابن اياس. (٢٠١٨). بدائع الزهور في وقائع الدهور. (تحقيق: محمد مصطفى) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

محمد بن عبدالله اللواتي المعروف بابن بطوطة ابن بطوطة. (١٩٩٧). رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار. (تحقيق: عبد الهادي التازي الرباط: مطبوعات اكاديمية المملكة المغربية.

محمد عبدالله سالم العمايرة. (٢٠١٠). المعجم العسكري المملوكي. عمان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.

محي الدين ابو الفضل ابن عبد الظاهر. (١٩٤٢). الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر(بيبرس). القاهرة: دار احياء الكتب المصرية.

مصطفى مراد الدباغ. (١٩٩١). بلادنا فلسطين. فلسطين: دار الهدى.

مفضل بن ابي الفضائل ابن العسال. (٢٠١٧). النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد. (تحقيق: محمد كمال الدين عزالدين) دمشق: دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع.

Resources and References:

Ibrahim bin Muhammad bin Aydamur bin Duqmaq. (1985). The Precious Jewel in the Biographies of Kings and Sultans. (Edited by: Muhammad Kamal al-Din) Beirut: Alam al-Kutub.

Ibn Aybak Salah al-Din al-Safadi. (2000). Al-Wafi bil-Wafiyat. Beirut: Dar Ihya al-Turath.

Abu Bakr bin Abdullah bin Aybak. (1960). Kanz al-Durar wa Jami' al-Ghurar. (Edited by: Robert Roemer Hans), Cairo.

Abi al-Hasan Ali bin Muhammad bin Habib al-Mawardi. (1989). Sultanic Rulings and Religious States. (Edited by: Ahmad Mubarak al-Baghdadi) Kuwait: Dar Ibn Qutaybah Library.

Ahmad bin Ali al-Qalqashandi. (1992). Subh al-A'sha fi Sina'at al-Insha. (Edited by: Muhammad Shams al-Din) Cairo: Dar al-Kutub al-Masriyyah.

Ahmad bin Ali al-Maqrizi. (1997). Conduct to Know the States of Kings. (Edited by: Muhammad Abdul Qadir Atta) Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.

Ahmed bin Ali Al-Maqrizi. (1998). Sermons and consideration in mentioning the plans and monuments known as Al-Maqriziyya plans. (Investigation: Muhammad Zainhum and Madiha Al-Sharqawi) Cairo: Madbouly Library.

Ahmed bin Ali Al-Maqrizi. (2000). The gold cast in the mention of those who performed Hajj from the caliphs and kings. (Investigation: Jamal Al-Din Al-Shiyal) Port Said: Library of Religious Culture.

Ahmed bin Ali Al-Maqrizi. (2556). The Great Rhyme. (Investigation: Muhammad Al-Yalawi) Beirut: Al-Gharb Al-Islami.

Sir William Muir. (1995). History of the Mamluk State in Egypt. (Translation: Mahmoud Abdeen and Salim Hassan) Cairo: Madbouly Library.

Al-Safadi, Salah Al-Din Ibn Aybak. (2000). Al-Wafi bil-Wafiyat. Beirut: Dar Ihya Al-Turath.

Al-Najm Omar bin Fahd bin Muhammad Al-Makki bin Fahd. (1984). Ithaaf Al-Wara bi-Akhbar Umm Al-Qura. (Investigation: Fahim Muhammad Shaltut) Mecca: Center for Scientific Research and Revival of Islamic Heritage.

Badr al-Din Mahmoud bin Ahmed al-Aini. (2010). Aqd al-Juman fi Tarikh Ahl al-Zaman "The Era of the Mamluk Sultans". (Investigation: Muhammad Muhammad Amin) Cairo: Dar al-Kutub wa al-Adathiq al-Qawmiyyah Press.

Jassim Muhammad Jassim Muhammad. (No date). The political and military importance of the establishment of the Bahri Mamluk State in Egypt and the Levant 648-784 AH/1250-1382 AD. Kirkuk University Journal/Humanities (Issue 1, Volume 6).

Jalal al-Din Abdul Rahman al-Suyuti. (1968). Hassan al-Muhadara fi Tarikh Misr wa Cairo. (Investigation: Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim) Cairo: Dar Ihya al-Kutub al-Arabiyyah.

Jalal al-Din Abdul Rahman al-Suyuti. (2005). History of the Caliphs. (Investigation: Ahmad Ibrahim Zahw and Sa'id bin Ahmad al-Abdusi) Beirut: Dar al-Kutub al-Arabi.

Jamal al-Din Abu al-Mahasin Ibn Taghri Bardi. (1984). Al-Manhal Al-Safi and Al-Mustawfi Ba'd Al-Wafi. (Edited by: Muhammad Amin) Cairo: Egyptian General Book Authority.

Jamal Al-Din Abu Al-Mahasin Ibn Taghri Bardi. (1992). The Shining Stars in the Kings of Egypt and Cairo. (Muhammad Hussein Shams Al-Din) Beirut: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyyah.

Jamal Al-Din Abu Al-Mahasin Ibn Taghri Bardi. (1997). Resources of Delicacy in Those Who Were in Authority and the Caliphate. (Edited by: Nabil Abdul Aziz Ahmed) Cairo: Dar Al-Kotob Al-Masryah Press.

Khair Al-Din Mahmoud bin Muhammad Al-Zarkali. (2002). Al-A'lam Dictionary of Biographies of the Most Famous Men and Women from the Arabs, Arabists and Orientalists, (Volume 15). Beirut: Dar Al-Ilm Lil-Malayin.

Rukn Al-Din Baybars bin Abdullah Al-Khatai Al-Mansouri. (1993). Mukhtar Al-Akhbar, History of the Ayyubid State and the Bahri Mamluk State until the Year (702 AH/1302 AD). (Edited by: Abdul Hamid Saleh Hamdan) Cairo.

S. Mostras. (2002). Geographical Dictionary of the Ottoman Empire. (Translated by: Essam Mohamed El Shahat, Translators) Beirut: Dar Ibn Hazm for Printing, Publishing and Distribution.

Shihab El Din Ahmed bin Abdul Wahhab El Nuwairi. (2004). Nihayat El Arab in the Arts of Literature. (Edited by: Najib Mustafa and Hikmat Kashli) Beirut: Dar El Kotob El Ilmiyah.

Shihab El Din Ahmed bin Ali bin Hajar El Asqalani. (1996). Inbaa El Ghomr bi Abnaa El Omr. (Edited by: Hassan Habashi) Cairo: Supreme Council for Islamic Affairs - Committee for the Revival of Islamic Heritage.

Shihab El Din bin Abdullah Yaqut El Hamawi. (2007). Dictionary of Countries. Beirut: Dar Sader for Printing and Publishing.

Saleh Ahmed Saleh El Jabouri. (2012). The Role of Mosques and Mosques in Education in Egypt during the Era of the Bahri Mamluks. Kirkuk University Journal for Humanities (Volume 7/Issue 3).

Imad El Din Ismail Ibn Katheer. (2003). The Beginning and the End. (Investigation: Abdullah Al-Mohsen Al-Turki) Riyadh: Dar Alam Al-Kutub.

Imad Al-Din Ismail Ali bin Mahmoud Abu Al-Fida. (1997). A Brief History of Mankind. (Investigation: Mahmoud Diop) Cairo: Al-Hussainiya Egyptian Press.

Qutb Al-Din Abu Al-Fath Musa bin Muhammad Al-Yunini. (1992). The Tail of a Hundred Years of Time. Cairo: Dar Al-Kitab Al-Islami.

Muhammad Ahmad Dahman. (1990). Dictionary of Historical Terms in the Mamluk Era. Beirut: Dar Al-Fikr Al-Mu'aser.

Muhammad bin Ahmad Al-Hanafi Ibn Ayas. (2018). Bada'i' Al-Zuhur fi Waqa'i' Al-Duhur. (Investigation: Muhammad Mustafa) Cairo: Egyptian General Book Authority.

Muhammad bin Abdullah Al-Lawati, known as Ibn Battuta Ibn Battuta. (1997). Ibn Battuta's Journey, entitled Tuhfat Al-Nazar fi Ghara'ib Al-Amsar wa Aja'ib Al-Asfar. (Investigation: Abdel Hadi Al-Tazi Rabat: Publications of the Academy of the Kingdom of Morocco.

Muhammad Abdullah Salem Al-Amaira. (2010). The Mamluk Military Dictionary. Amman: Dar Kunuz Al-Ma'rifa for Publishing and Distribution.

Muhyiddin Abu Al-Fadl Ibn Abd Al-Zahir. (1942). The Blossoming Garden in the Biography of King Al-Zahir (Baybars). Cairo: Dar Ihya Al-Kutub Al-Masryia.

Mustafa Murad Al-Dabbagh. (1991). Our Country Palestine. Palestine: Dar Al-Huda.

Mufaddal Ibn Abi Al-Fadael Ibn Al-Assal. (2017). The Right Path and the Unique Pearl after the History of ibn Al-Amid. (Investigation: Muhammad Kamal Al-Din Ezz Al-Din) Damascus: Dar Saad Al-Din for Printing, Publishing and Distribution.